

جَنَاح

الْأَمَانَاتِ الْمَقْدِسَةِ

وَأَقْسَامِهِ

دائرة البردة النبوية الشريفة أو جناح الأمانات المقدسة

أُنشئ هذا القسم في عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١ م) تحت اسم "الحجرة الخاصة"، وكان السلطان يقيم في هذا المكان حيث يوجد عرش السلطنة، ويتولى إدارة بعض شؤون الدولة ويؤدي صلاته وعبادته. وكان عدد خدام الحجرة الخاصة (دائرة البردة الشريفة) أربعين، ٣٩ منهم من الضباط ذوي الرتب العالية المرافقون للسلطان على الدوام، والشخص الأربعون هو السلطان نفسه. وعندما بدأ السلاطين يستخدمون القصور المطلّة على البوسفور مكاناً لإقامتهم بعد عام ١٨٠٨ م، تم تخصيص هذا الجناح لحفظ الأمانات المقدسة وعرف باسم "دائرة البردة الشريفة" أو "جناح الأمانات المقدسة".

مساحة الدائرة ٢٣×٢٣ متر مربع، وتتكون من أربعة أقسام مسقوفة بأربع قباب. تفصل الحجرات والقاعات عن بعضها بحدران سميكة. القسم الأول وهو مدخل الدائرة عبارة عن قاعة استقبال واسعة يتوسطها "شادرُوان" (نافورة) من الرخام تقع تحت القبة تماماً، ولذلك تسمى قاعة الشادرُوان. الحجرة الأولى على يمين المدخل هي قاعة العرض (عرض خانه) حيث تعرض القضايا على السلطان، والثانية التي تقع في الزاوية هي "الحجرة الخاصة" أي قاعة العرش، والأخرى التي تقع في شمال قاعة الشادرُوان والتي تدعى اليوم بـ "حجرة الدُستِمال" أي حجرة مناديل البردة هي حجرة خدام دائرة الحجرة الخاصة. يدخل من قاعة العرض (عرض خانه) إلى المكان الذي يعرف بـ "خزانة السلاحدار" أو "خزانة الأمانات". أما مدخل دائرة بردة السعادة والمعروف بباب النافورة حيث يؤدي إلى فناء "الأندرون"، فقد تم ترميمه في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠). وكان السلطان أحمد الثالث من مشاهير الخطاطين، فكتب كلمة التوحيد بنفسه على باب قاعة النافورة، وكتب على جانبي كلمة التوحيد مصراعين من الشعر على هيئة "طغراء" قال في الأول "مالك الدنيا السلطان الأمجد"، وفي الثاني "خدام الشريعة السلطان أحمد"، ونقش فوق هذه الكتابة بشكل طغراء صغيرة اسم السلطان أحمد الثالث.

وما أن تدلف إلى شمال باب قاعة النافورة قليلاً حتى تجد منصة كبيرة من الرخام أمام قبة الرواق. على هذه المنصة كان يوضع عرش السلطان بعد وفاته ويتم نعيه والترحم عليه. إنه لذو مغزى عظيم أن تلتصق غرفة العرش مع منصة التعش. ويوجد في إحدى زوايا المنصة الرخامية بئر مغطاة؛ هذه البئر كانت تستعمل لوضع الغبار أو الكناسمة التي تحصل أثناء تنظيف الحجرة الخاصة، أي أن السلاطين

المنصة التي تقع إلى شمال مدخل دائرة البردة الشريفة أنشئت في القرن السادس عشر، وهي المكان الذي كان يوضع عليه نعش السلطان عند الوفاة حيث يتم الترحم عليه. وفي إحدى زواياه بئر مغطاة كان يستفاد من مائها في تنظيف الحجرة الخاصة؛ ولما بعد استعملت لحفظ كتابة جناح الأمانات المقدسة والأغربة العالقة عليها إجلالاً لصاحب الأمانات المباركة عليه الصلاة والسلام.





برآورده مطرب سرگزین
شده برنگ بک نیاکاران

مقرب و امرده سینه
برآورده شکر بیله زانچه

► قاعة النافورة، سليمان
الملك، القرن السادس عشر.
طوب قاضي، رقم: ١٢٥

لم يرضوا بإلقاء غبار دائرة البردة النبوية في القمامة
إكراما للمكان الذي خرجت منه. كذلك ما أن تلتفت
إلى الزاوية التي تقع إلى يمين باب النافورة حتى ترى
هاون من الرخام وقد نحتت عليه كتابة بالفارسية. هذا
الهاون كان يلقى فيه مواد بخور بردة السعادة حسبما
نقنضيه التقاليد. وفيما يلي وصف إعداد هذا البخور:
يوضع عشب العود في الهاون، ويلقى مع غبار
الفحم، ويسحقان حتى يصيرا كالكحل، ثم يعجن
المسحوق بماء الورد، وتوضع العجينة في القوالب لينم
تفتيلها. أما مقادير البخور المقنول فهي كما يلي: درهم
من العنبر، ٥ دراهم من العود، ١٥ درهما من اللبان،
٥ دراهم من النرجس، ٥ دراهم من ورق الآس، ٦
دراهم من اللادن، درهم كافور، ٣ دراهم أنرج، قليل
من المسك، ٨ دراهم من السكر، وكمية كافية من
فحم الصفصاف. وكانت العادة أنه حينما يأتي السلطان
إلى قسم بردة السعادة يأخذ رئيس الكتاب بالمبحرة،
وفيها البخور، ويمشي إلى جانب السلطان لتفوح في
الأرجاء رائحة شذية.

► الهاون الذي يقع في الزاوية
وعلى يمين مدخل دائرة
البردة الشريفة مصنوع من
البرمر. كانت المواد العطارية
ذات الروائح الزكية مثل العود
والعود تلقى فيه، ويصنع منها
أقراص تستخدم في البخور،
أو يصنع منها سمنوع توضع
في شعالات خاصة. وعندما
تشعل تشتت رائحة شذية في
أرجاء جناح الأمانات المقدسة.



قاعة النافورة (شادروان)

كان من عادات التبحيل والتقدير غسل اليدين في النافورة قبل الدخول إلى دائرة بركة السعادة حتى لا يدخل الغبار من الخارج.

في هذا القسم قبتان تحت إحداهما نافورة من الرخام. وكان الموظفون الذين انتخبوا لخدمة الدائرة يتوضؤون من ماء النافورة ويصلون أوقاتهم أحيانا فوق مصطبة توجد في القاعة؛ كما يغسلون أيديهم قبل دخولهم إلى القسم حتى لا يدخلوا الغبار إليه من الخارج احتراماً وتبجيلاً للمكان. ويوجد في كل من قتي قاعة النافورة (الشادروان) فوانيس للإضاءة، كما توجد في كل غرف البناء. وفيما بعد فتحت في أعالي القبة نوافذ للإضاءة، ولكن بسبب بعض الإضافات الجديدة أصبحت تلك النوافذ معدومة الفائدة. أبواب هذا القسم ونوافذه الخشبية، وأبواب قاعة العرض (عرض خانه) وحجرة متاديل البردة (دستمال)، كلها قديمة قدم البناء. لقد نقش على الأبواب بالنقوش الخشبية اسم السلطان محمد الفاتح، والباب الذي يدخل منه إلى الحجرة الخاصة مزين بالصدف. وفي أوائل القرن العشرين أدخلت على الباب بعض التعديلات من قبل المصطف وأصف أفندي. ويلاحظ فوق الباب رباعية بالفارسية لمولانا جلال الدين الرمي معناها بالعربية:

كل الأبواب مغلقة،

ولم يبق للغرباء باب مفتوح، إلا بابك،

يا باب العز والكرم، يا باب النور الساطع،

الشمس والقمر والكواكب والنجوم،

كلها عبيد بين يديك...

حدد رخام الباب والنافذة اللذين يوجدان خلف المصطبة الحجرية أثناء التعديلات زمن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)، كما زينت جدران القاعة بالحزف الملون الذي يعود تاريخه إلى أواسط القرن السادس عشر. وفي تاريخ ١٩١٦ وأثناء الترميم أيضا أضيفت بلاطات خزفية جديدة على جدران القاعة؛ وفي نفس التاريخ تم زخرفة القبة وتزيينها بأيدي فنيين مهرة بصورة تنسجم مع زخرفة الجدران.



باب الحجرة الخاصة من
صبح الضاد واصف الذي.
كتب على مصراعى الباب
أيات مولانا جلال الدين
الرومي والتي يقول فيها: كل
الأبواب مغلقة / ولم يبق
لغيره باب مفتوح إلا بابك
/ يا باب العز والكرم، يا
باب النور الناطع / الشمس
والقمر والكواكب والنجوم
/ كلها عبدة بين يديك.

الحجرة الخاصة

سابقا كانت حُجرة العرش السلطاني، ثم خصصت لآثار الرسول ﷺ اعتباراً من عهد السلطان محمود الثاني.

مختصتان مهمتان لتدعمان
في قسم الحجرة الخاصة
وهما كبير محافظي الأسلحة
وكبير رجال المعية. نسخة
مرسومة من قبل الرسام
"توسي" بمسود إلى عهد
السلطان أحمد الثالث. طوب
قني، رقم: ٢١٦٤-٢٠٢٠ b

الحجرة الخاصة هي أهم مكان في دائرة البردة الشريفة؛ وارتفاع قبتها على القباب الأخرى هو للإشارة إلى أنها حجرة السلطان. تم تجديد قبتها على الطراز المملوكي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) بعد عودته من سفرته إلى مصر عام ١٥١٧ م، كما أدخلت عليها تعديلات في العصور اللاحقة. وحديث بالذكر أن السلاطين العثمانيين كانوا يبيتون في الحجرة الخاصة، ويمارسون حياتهم اليومية فيها. وذلك ابتداء من عصر السلطان محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١ م) إلى أواخر النصف الثاني من القرن السادس عشر. وفي عهد السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥ م) صار السلاطين يمشون أكثر لياقتهم في قسم الحريم بحجراتهم الخاصة بهم، وبقيت الحجرة الخاصة لممارسة حياتهم اليومية. وكانت العادة أن تقام طقوس جلوس السلاطين الجدد على كرسي العرش في هذه الحجرة، حيث يلبس السلطان تاج السلطنة ويستقبل الشهابي، ثم يلي ذلك إجراء المراسيم الرسمية أمام باب السعادة.

أما العرش السلطاني الموجود حالياً في الزاوية الشمالية من المدخل، فقد صنعه كبير صباغي القصر الدرويش "زبلي محمد" والد "أوليا جلبي" في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠ م)، وهو يشبه الخيمة ويقوم على أربع أعمدة وقبة ذات مرآة. وقد تم تزيين سقف القبة من الداخل بأفضل النقوش وأروعها، وذلك في القرن السابع عشر؛ بينما نقش على القسم الخارجي من القبة كتابة تقول "مسند القبة، سرير السلطان، صاحب المقام الأعلى". وفي ذلك العصر كانت

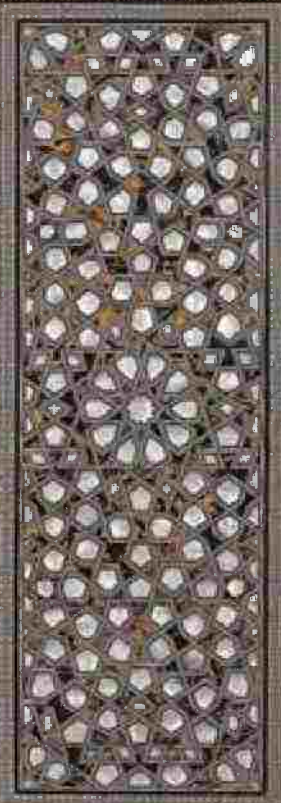
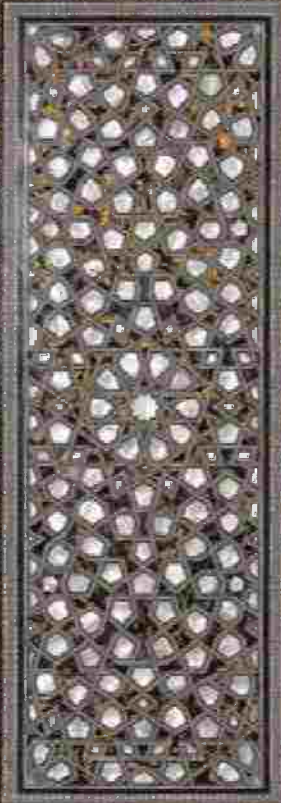


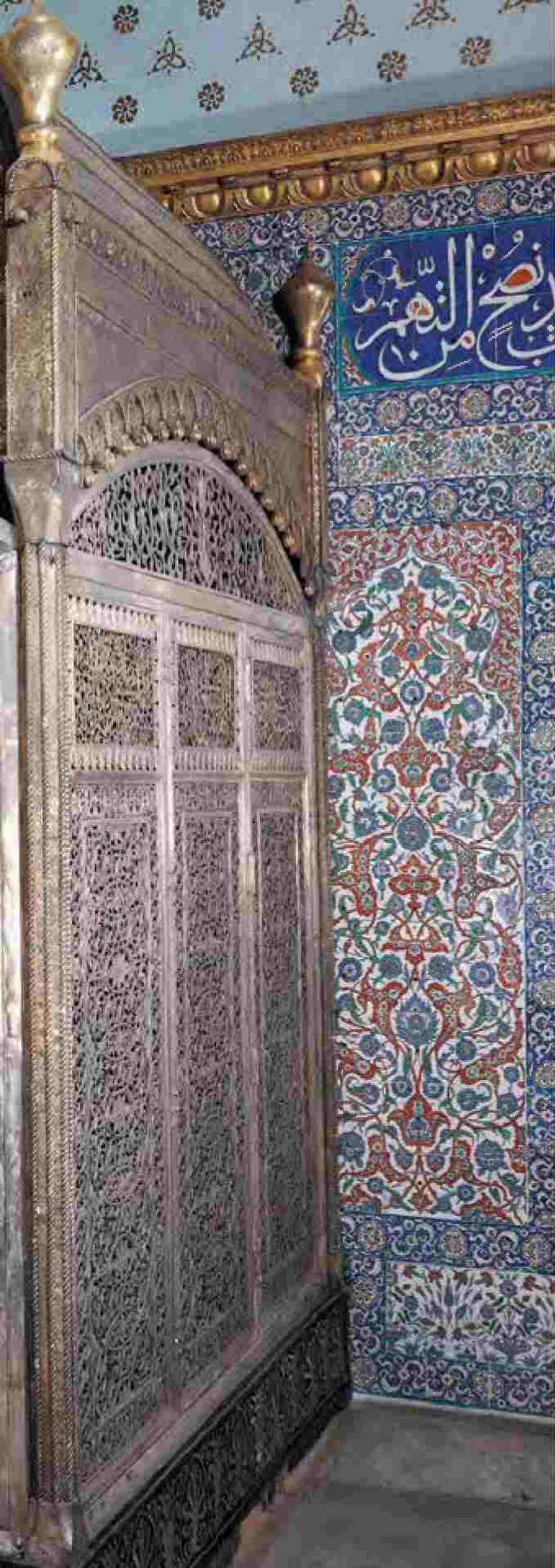
السَّالَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ



مِنْ كَرَمِ مَنْزِلَةِ نَوَافِلِي
خَوَاشِي دُستَارِ كَانِ چَاكِي

دُرِّ مَرَمِستَانِ لَاقَرِي
نَازِ مَرَمِستَانِ بَاقَرِي



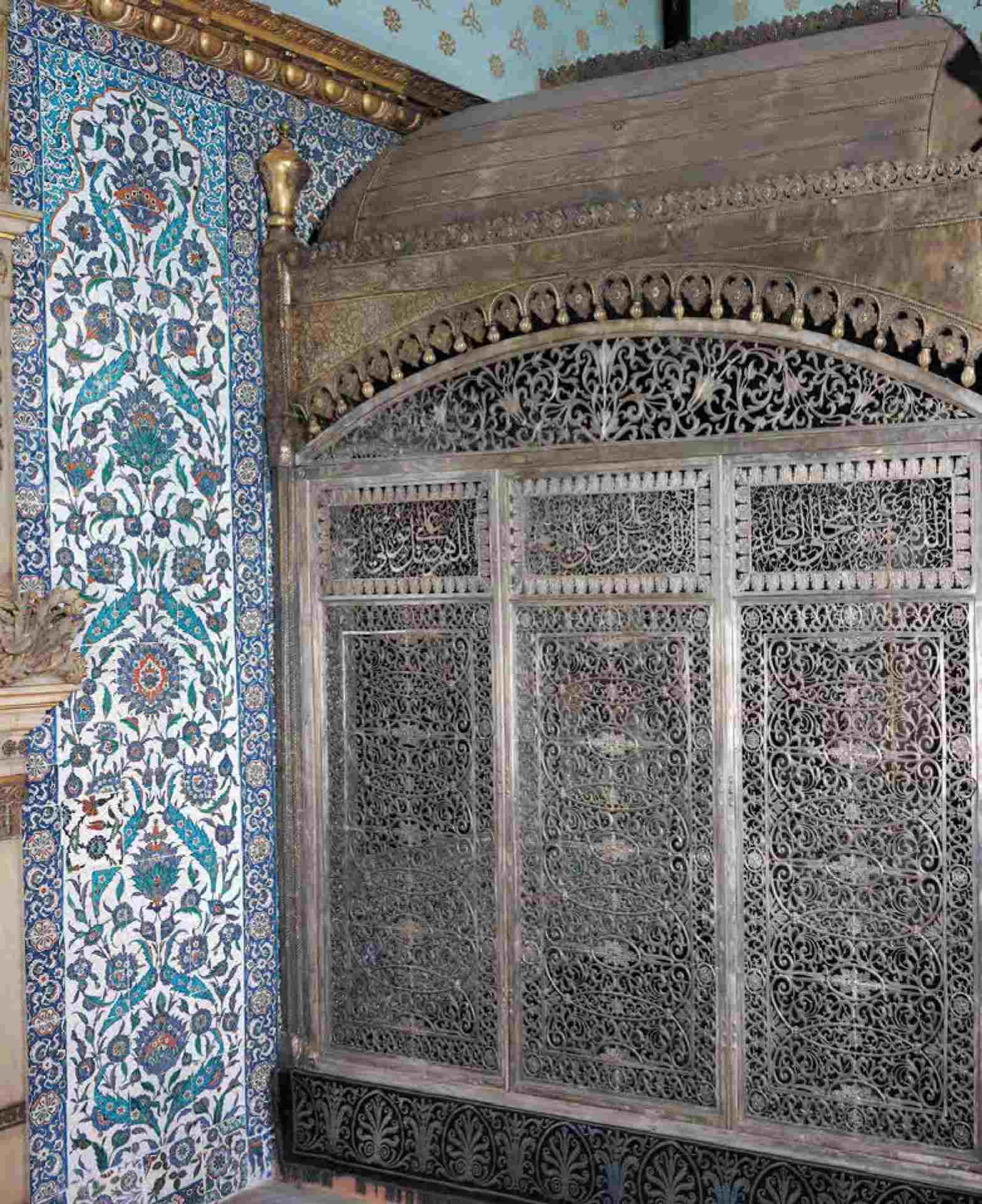


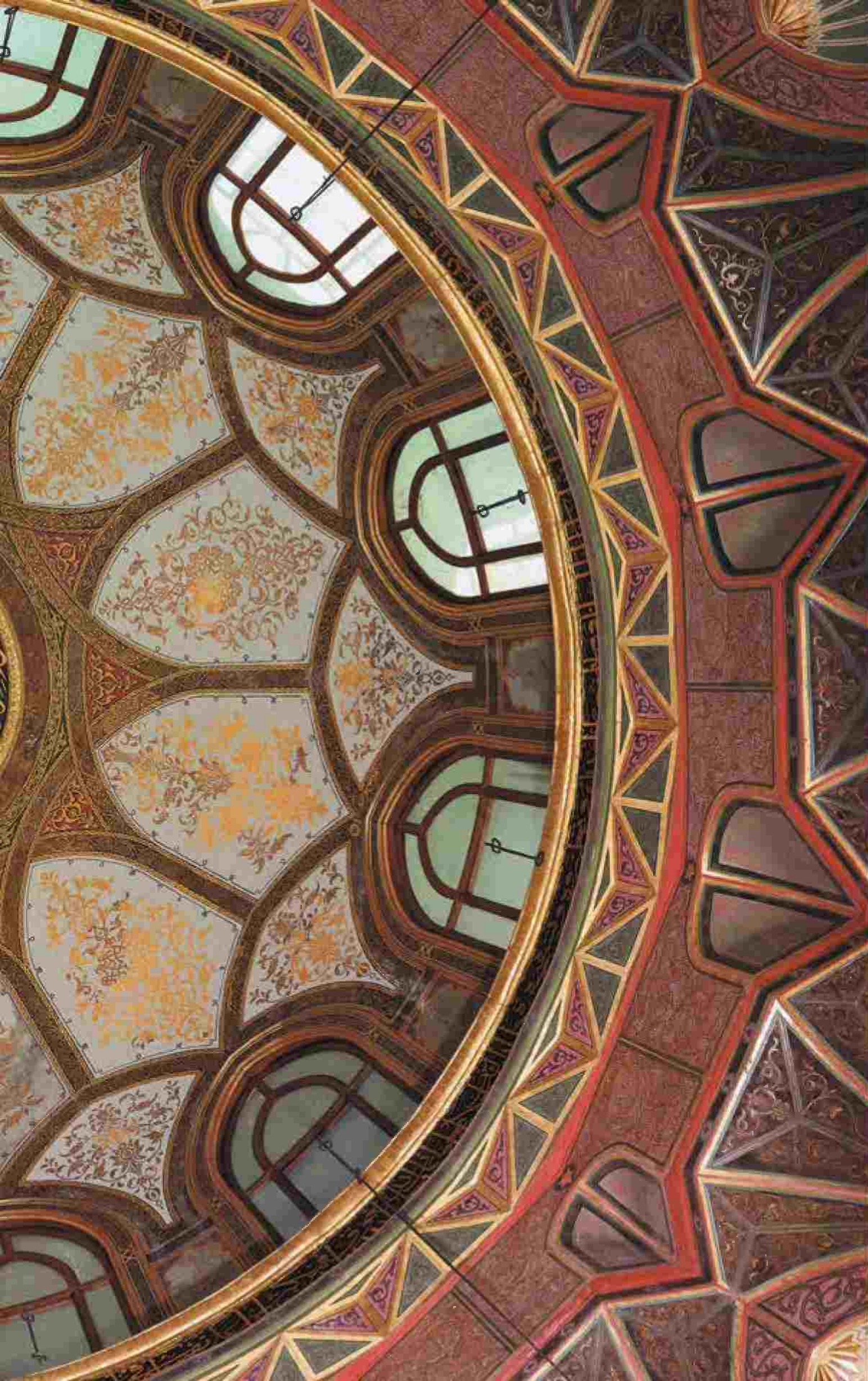
بردة السعادة، إضافة إلى أمانات مباركة أخرى، نحفظ في خزانة داخلية غطاؤها من حديد وراء الكرسي وفوق رأس السلطان. وفي نفس الجهة طاقة صغيرة في الجدار بحجم المحفظة الداخلية للأمانات المباركة. وقد كتب السلطان أحمد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) في يومياته أن بردة السعادة وضعت في صندوق مزخرف بجانب العرش السلطاني فوق رف خصص لها.

وبعد أن غادرت العائلة السلطانية قصر طوب قايي إلى قصور البوسفور خصصت الدائرة بكاملها للأمانات المقدسة وجعل العرش السلطاني موضعاً لها حيث تربعت عليه. وبعد ذلك التاريخ أنشأ السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) في الزاوية مفصورة فضية من ست شبكات. وقد وضعت بردة السعادة داخل المفصورة الفضية في صندوق ذهبي كبير على منصة مرتفعة. والمفصورة مغطاة من الجهة الأمامية والخلفية بشبكة مزخرفة بخيوط فضية مكتوب عليها "اللهم صل على نبي الرحمة، اللهم صل على شفيع الأمة، اللهم صل على كاشف الغمة، اللهم صل على مجلي الظلمة، اللهم صل على مولي النعمة، اللهم صل على معطي الرحمة" وآيات من سورة آل عمران.

والجدران الداخلية للحجرة مزخرفة بلوحات الخزف الإزنيكي التي أمر السلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣) بوضعها، وقد كتب على شريط خزفي "قصبدة البردة"، وفي وسط القبة آيتان من سورة الأحزاب رقم (٤٦-٤٧)، وفي ذيل القبة الآيات الثمانية الأولى من سورة الفتح.

المفصورة الفضية في الحجرة الخاصة. صندوق البردة الشريفة وكرسي العرش داخل المفصورة.





الجامع والحمام في القرن
السادس عشر تم زينه
على الطراز المملوكي
في الأجزاء والحوائط تم
تجديد القبة سنة ١٩١٦



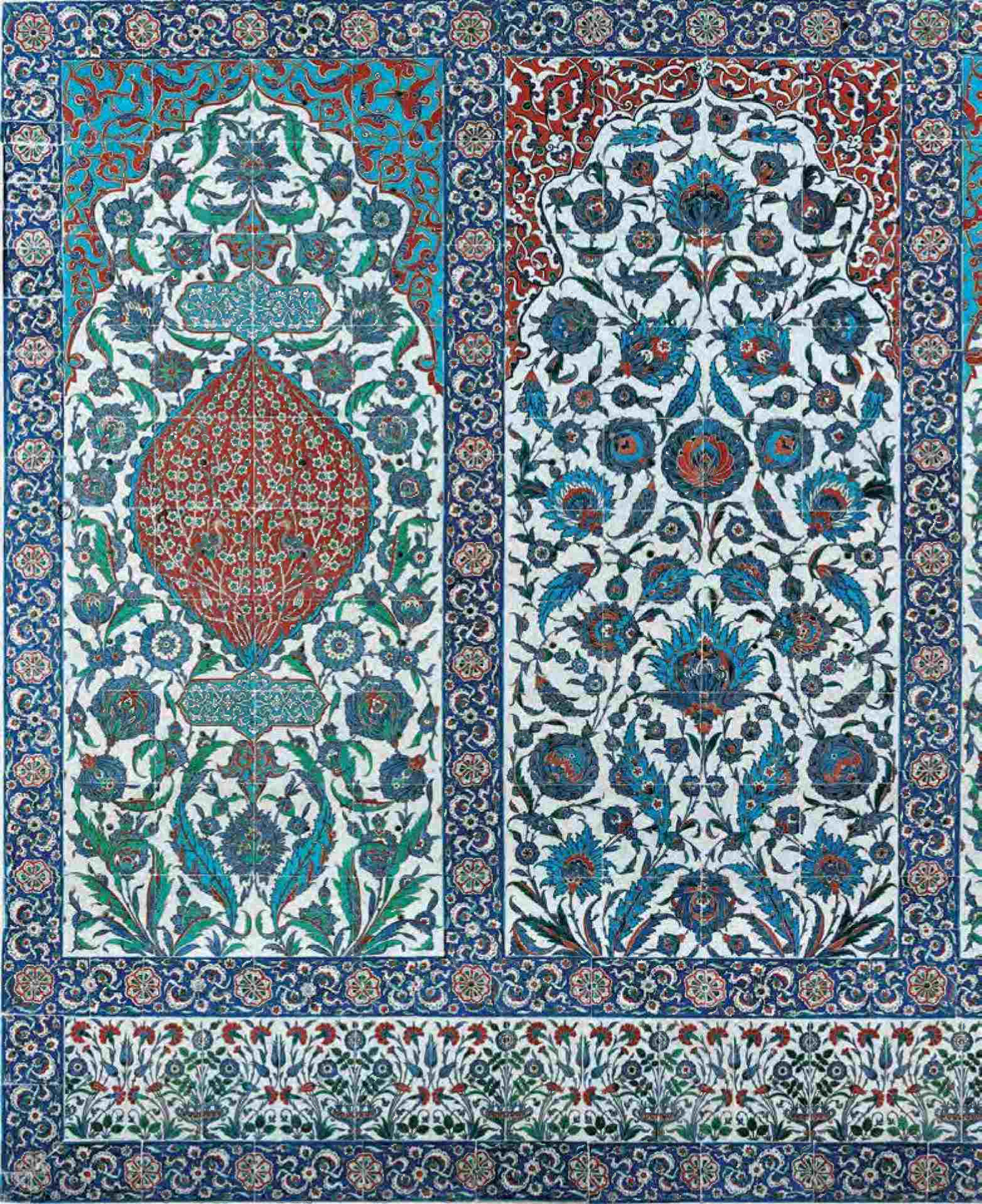


لوحة خرافية في الحجرة
الخاصة، صاعدة
مديسة إلهيك التركية.

وعلى شمال باب المدخل موقد من الرخام
المصنوع حسب نمطين من أنماط العمارة الأوروبية
المشهورة في ذلك العهد، وهما طراز "باروك"
و"أمبير"؛ وعلى أطراف الموقد وأعلى زخارف
ونقوش على طراز "روكوكو"، وفي وسطه
طغراء السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩).
ويحتفظ بالأمانات المقدسة في خزانة كبيرة بجدار
الحجرة الخاصة ودخل المقصورة الفضية.

وفي العهد العثماني كان في دائرة بردة
السعادة صندوق يحتوي على خشب العود والعنبر
والبخور والمباخر ومحافظ ماء الورد، ورفوف
ومكانس مزينة بالقماش الرقيق. وكانت عملية
تنظيف الأرضية والجدران تتم مرة في الأسبوع؛
بيد أن تجلية أطراف الأبواب والنوافذ وصقلها
بالزيت لكي تلمع كان يتم مرة كل واحد وعشرين
يوماً. وأثناء هذه العملية تخرج الأشياء المباركة
المذكورة من الخزانة، ثم تعاد إليها بعد تنظيفها
من قبل خدام الحجرة.

واليوم، صندوق بردة السعادة والعرض السلطاني
الموجود داخل المقصورة الفضية، والمحفظة التي
تضم اللواء الشريف، وسيف النبي ﷺ وقوسه
وترسه... كل ذلك يمكن زيارته ورؤيته من خلف
الحائل الزجاجي الفاصل بين الحجرة الخاصة
وقاعة العرض (العرض خاتنه).



حجرة مناديل البردة (دستمال)

سميت هذه الحجرة بحجرة الدستمال، أي المناديل؛ لأن مناديل بردة السعادة كانت تصنع في هذه الغرفة حيث تتكون من قماش رقيق مزركش يكتب في وسطه وأطرافه أبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ، وتوزع على زوار دائرة البردة الشريفة، وذلك في القرن التاسع عشر، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

أدخلت على حجرة مناديل البردة تعديلات كثيرة على مدى الأزمان؛ فقد كانت طوال عدة قرون مخصصة لمبيت أفراد الأتدرون الذين يقومون بخدمة السلطان ويتدربون على تدبير شؤون الحكم بالقرب منه، وكان عددهم يقارب الأربعين فرداً. والداخل إلى حجرة مناديل البردة يلاحظ على جدرانها عدة كتابات، أقدمها كتابة تتعلق بإصلاح الحجرة ويعود تاريخها إلى ١٠٢٧ هـ (١٦١٧-١٦١٨ م). كما يوجد كتابتان تعودان إلى تاريخ ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧-١٦٣٨ م) و ١٠٤٩ هـ (١٦٣٩-١٦٤٠ م)، وذلك في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠)، وتحدثان عن إنشاء قبة للحجرة الخاصة وتزيين جدرانها بالخزف المزخرف بأشكال بديعة. أما الكتابات الأخرى فهي تعود إلى تواريخ لاحقة وتحدث عن الإصلاحات والتعديلات التي أدخلت على حمام السلاحدار وحجرة كاتب سر السلطان. كذلك كتابات أخرى تحدثت عن الأوقاف المالية التي قام بها السلاطين من أجل إصلاح وتزيين هذا المكان.

فتحت حجرة مناديل البردة أبوابها للزوار عقب الترميمات عام ١٩٩٧ في شهر رمضان المبارك. ويمكن للزائر أن يرى بين الأمانات المباركة الموجودة في حجرة مناديل البردة نماذج لبعض السور التي كتبت من قبل كتاب الوحي في عهد الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام مثل سورتي الهمزة والتكاثر، إضافة إلى رسائل أرسلها النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب والمنذر بن ساوى أمير منطقة الإحساء، إلى جانب المصحف الشريف الذي كان -كما تقول الروايات- سيدنا عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه أثناء استشهاده. (وحدّث بالذكر أن هذه الآثار المباركة لا تعرض على الزوار إلا في شهر رمضان المبارك من كل سنة ثم تعاد إلى المستودع لكي لا يلحقها أي ضرر بسبب فلاتات آلات التصوير). وكذلك يوجد في هذه الغرفة عصا سيدنا موسى عليه السلام، وطنجرة حجرية لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيف داود عليه السلام، وعمامة أويس القرني عليه السلام، واللحية الشريفة، وأثر القدم الشريفة، وسيف سيدنا عثمان رضي الله عنه، وأباريق لماء زمزم، وكسوة الكعبة المعظمة، وعمامة سيدنا يوسف عليه السلام، ومناديل مكتوب على أطرافها ووسطها أبيات من الشعر وغير ذلك من الآثار.



قاعة العرض (عرض خاند)

يدخل إلى هذه القاعة من الباب الأول الواقع إلى يمين قاعة النافورة. كانت قاعة العرض تسمى حسبما تذكر المصادر التاريخية "أرسلان خاند"، أي عربين الأسود، لأن أمهات السلاطين كنّ يخاطبن أبناءهن السلاطين في هذه القاعة بـ "يا أسدي". أما النوافذ الموجودة في القبة فقد فتحت في القرن السادس عشر والثامن عشر، وهناك لوحة كتب عليها آيات من القرآن الكريم. في هذه القاعة كان السلطان يلتقي مع ضباط الأندرون ويستمع إلى مطالبهم أو شكواهم، لذلك سُميت بـ "عرض خاند" أي قاعة العرض. وكذلك حينما كان الصدر الأعظم وأركان الدولة يأتون لمقابلة السلطان كانوا ينتظرون في هذا المكان حيث يقدم لهم المسك والعنبر والقهوة ومعجون السلطان -وهو نوع من الحلوى يصنع من عدة مواد عطارية- ربما يؤذن لهم بالدخول إلى حضرة السلطان. كما كانت العادة أن يمثل في هذا المكان كل من الصدر الأعظم وكبار رجالات القصر لتقديم التهاني بحلول يوم زيارة بردة السعادة، وذلك اليوم هو الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، وغيره من الأيام الفضيلة. وبما أن هذه القاعة تحتوي على محفظة الحجر الأسود، ورسالة سيدنا رسول الله ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط، وأثر قدمه المباركة، وختمه عليه الصلاة والسلام، وتراب قبره الشريف، ورباعيته ومحافظ اللحية الشريفة، ومحافظ لواء السعادة والقرآن الكريم، فهي مفتوحة للزوار على الدوام.

المناديل السلطانية التي تُشرف بعلامه البردة الشريفة، تودع على الزوار وعشاق الحب المعشوق، يكتب عليها بعض الآيات التي تعبر عن هذا الحب العميق.

خزانة الأمانات (خزانة السلاحدار)

يدخل إلى هذا القسم من قاعة العرض، حيث يوجد فيه أشياء قيمة كان السلاطين يستعملونها، إضافة إلى أشياء كانت تستخدم في الحجرة الخاصة من شمعدانات وجواهر كريمة وكتب ثمينة وأوان مختلفة وأسلحة ودراهم ذهبية وفضية؛ كل ذلك كان ضمن مسؤولية "السلاحدار"، أي كبير محافظي الأسلحة. وكان يدعى هذا المكان بـ "قسم الشمعدانات" حتى أوائل القرن العشرين، وقد استعمل لأغراض متعددة في أوقات مختلفة عبر التاريخ العثماني.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لهذا
وَمَا كنا لنجده لولا هداية ربنا

خدا شريف دعوت توك

شهر رمضان سالت قافلہ سالار كتيبة جوت رن اوانى تختاه سرورى زبور بخانى روى يغينى فخر الانبياء والاسلاف
 حبيب محمد بنى العالمين سيد الوصي حضرت محمد المصطفى عليه وعلى آله افضل الصلوة وائم الخبايا اقدس بركات موهب باها
 ومفحت دستوب سرف بغيات اولاده فرق شريف عالم بطا وريد لطيف جلالة جلالك ودينه قديم دولت عليه اوز
 انبوه ماه صيام مفرقت انجاره دى زيارت وصيه ساي ضراعت ايله مظهر فيه ومفحت الله اوزره سهر شريفك اوبه شى
 كونه ساعت ايله ايكه ساي والاي حضرت خدا قيتجه عربت الله صم الله زن والاي مير يارى اول مجلس كود
 انبى وموفق بقا فيه ماه الله بسمه خاتر اوله بركت

دائرة برودة السعادة

هزارهاتها في شهر رمضان المبارك

شهد قصر طوب قابي في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) عادات جميلة وتقاليد
 جديدة، منها يوم إخراج وتقبيل برودة السعادة. ففي عام ١٥١٧ م وما تلاه من الأعوام كانت العادة
 أنه حينما يقترب اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، ترى كل سكان القصر وقد سرت
 في ألبانهم خفة وحركة ونشاط حيث ترسل قواير مليئة بماء البخور إلى الباشوات والوزراء وشيخ
 الإسلام والوزير الأعظم وكبار رجال الدولة والعلماء المدعوين لحضور حفل تحية برودة السعادة.
 في هذا اليوم، الكل في منتهى البهجة والفرح حيث يرتدون أزياءهم الجديدة التي تليق بمقام الزيارة

نموذج من الدعوة التي كانت
 ترسل لحضور طقوس زيارة برودة
 السعادة في شهر رمضان المبارك.

سعداء فضي للبخور.
قطع من البخور الأسطوانية.
طوبداني، رقم: ١٩٧/٢١



وشرفها دون أن يضعوا ميداليات أو أوسمة على ملابسهم، وذلك لكيلا تعلق بصور البردة الشريفة أثناء الانحناء للتقبيل فتتساقط وتسقط من مكانها.

ويعطر المكان بماء البخور المركب من المواد التالية: ٢٠٠ درهم من الصندل الأصفر، ٢٠٠ درهم من زهرة بخور مريم، ١٨٠ درهم من خشب العود، ١٤٠ درهم من أسيلند، ٧٠ درهم قرموز، ٣٠ درهم لوطور، ٥٠ درهم بذر بصل، ٢٠ درهم عرق سمسم، ١١ درهم إصلاح المسك. وتوضع العقاقير في الصرر وتربط، ويؤتى بإناء يوضع فيه ١٥ أوقية من ماء الزهر، ٢١٢ أوقية من ماء الورد. ثم تسكب العقاقير في الإناء ويغلى فيه ويغلى على النار مدة اثني عشرة ساعة، ثم ينزل ويترك حتى تصل درجة حرارته إلى مستوى معقول، ويؤخذ السائل الحاصل ويوضع في إناء آخر. ثم يتم إحضار ٣٠ درهم صندل أصفر، ٢٠ درهم بخور مريم، ١٨ درهم من خشب العود، ٢٠ درهم مسحوق كلنك، ١٥ درهم أسيلند، وتوضع هذه المواد في صرر وتربط، ثم تغلى على النار ١٢ ساعة أخرى، ثم تنزل وتبرد، وبعد ذلك يضاف إليها ٥،١ مثقال من المسك، ٥،١ أوقية من ماء الورد، ويوضع الجميع في إبريق ويخض حتى تختلط ببعضها جيدا. وكلما خض الإبريق أكثر كلما كانت رائحة البخور أفضل. وقد اكتشف هذا النوع من البخور مصطفى آغا الأنقروى وتم تخصيصه للقصر فحسب. وبما أن إعداد هذا البخور صعب ويحتاج إلى تكاليف مالية كبيرة كانت تجمع لأجله تبرعات من سكان القصر.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر رمضان المبارك ينقل الصندوق الذي يحتوي على بردة الرسول عليه الصلاة والسلام ذات الأكمات الطويلة والواسعة إلى "قصر زوّان"، ويكس جميع أنحاء دائرة بردة السعادة جيّداً، وتغسل الجدران بماء الورد بطاسات من الفضة، وتصفل الأعمدة ثم تبخر بالمسك والعنبر ويوقد بخور العود. وعمليات التنظيف والتزيين هذه تُجرى من قبل خدام الحجرة الخاصة. وبعد إكمال عملية التنظيف تعاد الأمانات المباركة إلى مكانها بالدعاء والصلوات الشريفة تحت إشراف رئيس الحجرة الخاصة برفقة ما يقارب ١٥ شخصا من خدام الحجرة الخاصة.

وبحلول اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، وقبل صلاة الظهر يجمع أركان الدولة والعلماء وقادة فرق الإنكشارية وفرق الفرسان أمام باب السعادة المعروف بباب الأغوات البيض منتظرين مقدم الصدر الأعظم. ويخرج شيخ الإسلام من غرفته ويسير نحو جامع أباصوفيا لأداء صلاة الظهر. وما أن يبلغ نياً وصول شيخ الإسلام إلى الجامع حتى يأتي الصدر الأعظم إلى باب السعادة ويتوجه مع رفاقه من رجال الدولة إلى الجامع. وبعد أداء الصلاة يسبرون جميعاً في موكب عظيم وسط مدائح وصلوات نبوية شجيرة حتى يصلوا قاعة العرض، فيجدوا السلطان وقد صلى الظهر في حجرته الخاصة وجلس على كرسي العرش ينتظر قدومهم. ويتبعني أن نذكر أن خدام الحجرة الخاصة يأتون إلى الحجرة الخاصة قبل صلاة الظهر





يساعتين ليرفعوا بردة السعادة مع صندوقها الخاص من فوق الطاولة ويضعوها على وسائد حريرية زخرفت بخيوط فضية أجمل زخرفة وزينت أروع تزيين، ويلى ذلك تلاوة متواصلة للقرآن الكريم. وبعد الصلاة يدخل السلطان حجرة بردة السعادة يرافقه شيخ الإسلام والصدر الأعظم والوزراء والعلماء وكبار قادة الإنكشارية وقادة فرق الفرسان وأمين الأسلحة وكبير الحجاب ورئيس الخدام وأمين المفاتيح بانتظام وحسب ترتيب المناصب حتى تمتلئ حجرة السعادة بكبار أركان الدولة.

ويفتح صندوق بردة السعادة بمفتاح من الذهب يحمله السلطان، ويخرج منه دُرَج من الذهب ملفوف بسبع صُرَر من الحرير المخملي ذي اللون الأخضر المزركش زركشة ناعمة بالفضة. وللدرج فتحتان من الأعلى تفتحان من قبل السلطان بمفتاح آخر من الذهب حيث تخرج بردة السعادة ملفوفة بسبع صُرَر أيضا. وأثناء هذه العملية يجثو كل من إمام السلطان الأول والإمام الثاني وإمام الحجرة الخاصة والمؤذنون ذوو الأصوات النديّة على ركبهم يتلون القرآن الكريم دون انقطاع.

وأعبراً تظهر بردة السعادة، فيلمسها السلطان بإجلال بالغ وقبلها ويمرغ بها وجهه وعينه ويطلب الشفاقة من حضرة الحبيب المصطفى ﷺ، ثم يتقدم شيخ الإسلام والصدر الأعظم ومن أوما إليه السلطان، فيقبلونها بفائق الاحترام ويمرغون بها وجوههم وأعينهم واحداً بعد الآخر.

ثم يؤتى بطست من ذهب ويملاً بماء زمزم ويبلّ ذيل البردة السعادة فيه. وفي هذه الفترة يتلو الحاضرون آيات من الذكر الحكيم سراً ويستمعون بالصلوات على الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

بعد ذلك يتم إخراج ذيل البردة الشريفة من الطست الذهبي ويجفف يدخان

العنبر، وهكذا يكون المكان الذي لامسته الوجوه قد غسل أيضا. أما بالنسبة لما بقي في الطست من ماء زمزم فيوضع في قوارير صغيرة ويختم فيها لتُقدّم إلى كبار رجال الدولة كهدايا، فيكون ذلك الماء فاتحة إقطارهم في المساء كما يسفون منه مرضاهم بنبة الشفاء منتضرعين إلى المولى تعالى كي يجعلهم من السعداء الذين تالوا شفاعته الرسول ﷺ يوم المعاد. وحينما تنتهي الزيارة تعاد البردة الشريفة إلى صندوقها بعد أن تُصرّ في صررها المخملية السبع، ويقل عليها من قبل السلطان ويوضع الصندوق في مكانه.

هذه العادة، أي عادة بلّ ذيل البردة الشريفة في ماء زمزم وما يليها من طفوس تغيرت فيما بعد، حيث صنعت مناديل شقافة معطرة بماء البخور كتب عليها أبيات من الشعر في مدح الرسول ﷺ؛ وجعل السلطان في مثل هذه المناسبات يلامس المناديل الشقافة (دَسَمَال) بالبردة الشريفة ويهديها للوزراء. ومن الأبيات المكونة على مناديل البردة المعطرة:

ماء زمزم الذي كان يبلّ فيه ذيل بردة السعادة كان يوضع في زجاجات صغيرة تختم بالشمع الأحمر وتوزع على كبار الوزراء.

حوالة صغيرة تقع وراء المنصورة الفضية التي يحفظ فيها صندوق بردة السعادة في الحجرة الخاصة.

نلث بردته...
كل الشفاء لنتمها ظامنة...
كل الوجوه للمسها عاشقة...
تعال اقرب... قتل وانتهج،
وشفاعته فارح وانظر...

وبعد انتهاء طقوس زيارة بردة السعادة ينسحب السلطان للاستراحة؛ وفي المساء تقدم مأدبة الإفطار الخاصة ببيان أهمية هذا اليوم السعيد. وكان من العادة أن يطبخ خدام الأندرون طعاماً خاصاً يقدم إلى الضيوف في هذه المأدبة، وهو عبارة عن بيض مخلوط باليصل يستمر طبخه مدة تقارب ثلاث ساعات.

ومن الحدير بالذكر أن زيارة بردة السعادة كانت تتم في شهر رمضان المبارك من كل عام، واستمرت هذه العادة قروناً عدة شملت ما قبل إعلان فرمان "التنظيمات" (١٨٣٩ م) وما بعده، كذلك استمرت في العهد الذي عرف بعهد "المشروطية". وقد شارك الكاتب والأديب الكبير "خالد ضياء أوشكليكيل" في هذه الزيارة أربع مرات كموظف رسمي. يقول: "رأيت الوزراء والعوام من الناس وقد أتوا من أقصى البلاد وأدناها، واستمعت إلى صوت الأذان المرتفع من المآذن، وشهدت تلاوة القرآن بحضور السلطان، وشاهدت البردة النبوية الشريفة من بعيد؛ فلا تسأل عن عظمة ذلك المشهد العجيب، إذ رأيت أناساً ممن أتحت لهم فرصة الاقتراب من بردة السعادة يمرغون وجوههم بها... ورأيت عيوناً دامعة وقلوباً لله خاشعة ووجوهاً مستبشرة... وأحسست في قرارة نفسي أنني ابتعدت كل البعد عن الهواجس السيئة، وشعرت بلذة روحية ملكت عليّ كل كياني". بهذه العبارات الحياشة عبر الكاتب الشهير عن التأثير المعنوي العجيب الذي تحدثه الأمانات المباركة في القلوب.

ويحكى "علي رضا بك" في مذكراته "إسطنبول في القرن الثالث عشر الهجري" أنه كان الإفطار يقدم لرجال الدولة والعلماء في قسم "الأندرون"؛ وبعد اليوم الخامس عشر من شهر رمضان تفتح الأمانات المقدسة أبوابها للزوار المحبين لرسول الله ﷺ. كان الضيوف ينتظرون أذان المغرب في جناح الأمانات المباركة بخشوع، وعقب الأذان يفطرون على ماء زمزم ويصلون المغرب. وبعد ذلك ينتقلون إلى قاعة أمين الخزانة لتناول الطعام اللذيذ والشهي. ويأتي كل واحد من أفراد الأندرون بنوع من الطعام والحلويات أو المشروبات التي صنعها بيده الماهرة. وبعد الإفطار تقام صلاة العشاء والتراويح في حجرة بردة السعادة حسب تقاليد الأندرون مع الابتهالات والأناشيد والمدائح النبوية.

ويصف "روشن أشرف" المشاعر التي أحس بها في إحدى صلوات التراويح التي أداها في حجرة بردة السعادة فيقول:

"ارتفع صوت المؤذن من حديقة الخُرَامي، فاختلط صوته الندي بأصوات البلايل الساحرة، فأحسنا بسعادة غامرة وخشوع عميق يتناثر على رؤوسنا كماء الورد. وسرنا تحت أشجار الدُّلب



المتكاثفة الشامخة، فامتلاً قلبي بذكريات تاريخ مجيد قد أفل. وبدت الفوانيس الحمراء غير الدهاليز المظلمة وكأنها نجوم تنللاً في كبد السماء. فأمندت ظهري إلى عمود رخامي شهد محمد السلاطين قرونا وقد زين بالحزف الرائع. كان صوت القرآن الشجي ينفذ مباشرة إلى قلبي فأحس بربع العبادة يغمر كل كياني.

بعد ذلك قام الحاضرون ووقفوا صفوفاً بين الأعمدة لأداء صلاة التراويح. بين كل ركعتين كان المؤذنون يشدون المذائح النبوية والصلوات الشريفة بالحن ومقامات مختلفة؛ مرة بمقام الصبا ومرة بمقام الهزام وأخرى بمقام العجم ثم الرست... فغرقت في بحر من الشوة والهيام ونسبت كل شيء حتى الموت، وقلت في نفسي في أي عصر أنا يا ترى؟ إذ ما أن يمس كتفي كتف أحد ضباط الأندرون الواقف بجانبني حتى أشعر كأنني لمست أحد الحنود الذين أتوا من الديار المصرية؛ وما أن أسمع أنفاس الشيخ ذي اللحية البيضاء الذي يقف بجواري أثناء القيام والركوع والسجود، حتى يحيل إلي أنها أنفاس بطل شهد معركة زيكتوار في قلب أوربا؛ وما يكاد يبلغني صوت الإمام حتى يهبأ إلي أنه صوت المجاهدين السائرين إلى فتح بلغراد؛ وبعد كل سلام أتجيل وكأنني أنظر إلى أحد السلاطين السابقين، وقد وضع سبخته على ركبته بحاسب نفسه ويستغفر ربه ويبتهل إليه بذل وانكسار. كل هذه الأطياف مرّت أمامي في هذا المكان الساحر كشرائط فيلم، رأيها وأحسست بها، والفضل في ذلك كله يعود إلى صاحب الذكريات المباركة، الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

الحق يقال، لقد جاب العثمانيون الصحاري والوديان كعشاق متيمين ليأتوا بذكريات الرسول الكريم ﷺ إلى إسطنبول، المدينة التي تنبأ عليه الصلاة والسلام بفتحها قبل قرون... لا سيما بردة السعادة التي تشرفت بملامسة بدن أعظم رسول وأعظم إنسان عاش على وجه الأرض. بهذه التصورات اقتربت من بردة السعادة فتذكرت أصحاب رسول الله الكرام، فتساءلت فيما بيني وبين نفسي، إذا كانت هذه هي مشاعرنا بعد أكثر من ألف عام عند آثار الرسول ﷺ، فكيف كانت يا ترى مشاعر الصحابة الكرام، في أول صلاة تراويح، وفخر الكائنات ﷺ يؤمهم بنفسه، والإيمان حي في القلوب، تحت نجوم سماء الحجاز، وعلى رمالها التي أخذت تحفّ حرارتها؟ يا إلهي!

كنا تؤدي صلاتنا مغمورين بروائح العنبر الساحرة. وكنا نسمع -ولا سيما أثناء السجود- خريز ماء يأتي من بعيد. الروائح العنبرية كانت تأتي من مياحر فضية، والمياه تجري من ميزاب رخامي مزين بالنقش العربي. وفي هذا الجو وعند بردة المصطفى ﷺ كنا نحس وكأننا نسمع خريز الكوثر ونشم رائحة الفردوس.

وكان المؤذن ينادي في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك عند ختام صلاة التراويح: "الوداع الوداع يا شهر رمضان! الوداع الوداع يا شهر البركة والغفران!" ويكرر الجميع كلامه وسط دموع ساخنة وشوق حزين.

في هذا الجو الروحاني الغامر لم أشأ أن أطلب من المولى المتعالي شيئاً يتعلق بحياتي الدنيوية الفانية؛ فالدنيا وشؤون الدنيا بدت لي ضئيلة جداء، فتركت نفسي في ذلك البحر اللانهائي من الشوة والسكينة والاطمئنان.

تلاوة القرآن الكريم في دائرة البردة الشريفة

يقول الكاتب التركي الشهير "بحي كمال بياتلي" في كتابه "عزيز إسطنبول" (إسطنبول العزيزة): "أثناء رحلتي اكتشفت حقيقة لا تقبل مراء، وهي أن الدولة العثمانية تقوم على أساسين معنويين. الأساس الأول: صوت الأذان المرتفع فوق مآذن أياصوفيا بأمر السلطان محمد الفاتح، وما زال يرتفع حتى اليوم. والأساس الثاني: تلاوة القرآن الكريم بين يدي بردة السعادة بأمر من السلطان سليم الأول، وما زال يثلى حتى اليوم. فأنتم يا أبطال "أسكي شهر" و"أفيون" و"قره حصار" و"قارص" قاتلتم في حرب الاستقلال من أجل الحفاظ على هذين الأساسين".

إننا لا نعرف بالتحديد تاريخ بدء تلاوة القرآن الكريم في دائرة بردة السعادة، إلا أننا نعلم عموماً أنها بدأت في الربع الأول من القرن السادس عشر، وما زالت حتى يومنا الحاضر. كان أربعون حافظاً يتناوبون تلاوة القرآن الكريم في هذا القسم، منهم السلطان سليم نفسه بنية استمطار الخيرات من جانب الرحمة الإلهية ودفع البليات. وقد تعرض هذا التقليد السامي للانقطاع في بعض الفترات ولأسباب مختلفة إلا أنه لا يزال قائماً إلى اليوم.

إن من أروع الصور التي يقرأها القارئ عن دائرة بردة السعادة والأمانات المقدسة ما كتبه المؤرخ التركي "أحمد رفبق بك" في "جريدة الوقت" يوم ١٨ شباط/فبراير ١٩١٨ م عقب وفاة السلطان عبد الحميد الثاني وهو يصور أحداث تشييع جنازته تحت عنوان "أمام جثمان السلطان عبد الحميد الثاني". والنص فيما يلي:





أمامرجثمان السلطان عبد الحميد الثاني

رحل السلطان الصادق... هذا النيا الأليم عرفته الرعية من الجرائد... تنفس الصبح وأشرفت الشمس فنثرت أشعتها على مياه البوسفور فبدت حزينة، قالت مياه البحر بلسان حالها "إن السلطان عبد الحميد الثاني قد مات بعد أن تربع على عرش الخلافة أربعة وثلاثين عاماً، وسيدفن في مقبرة السلطان محمود..."

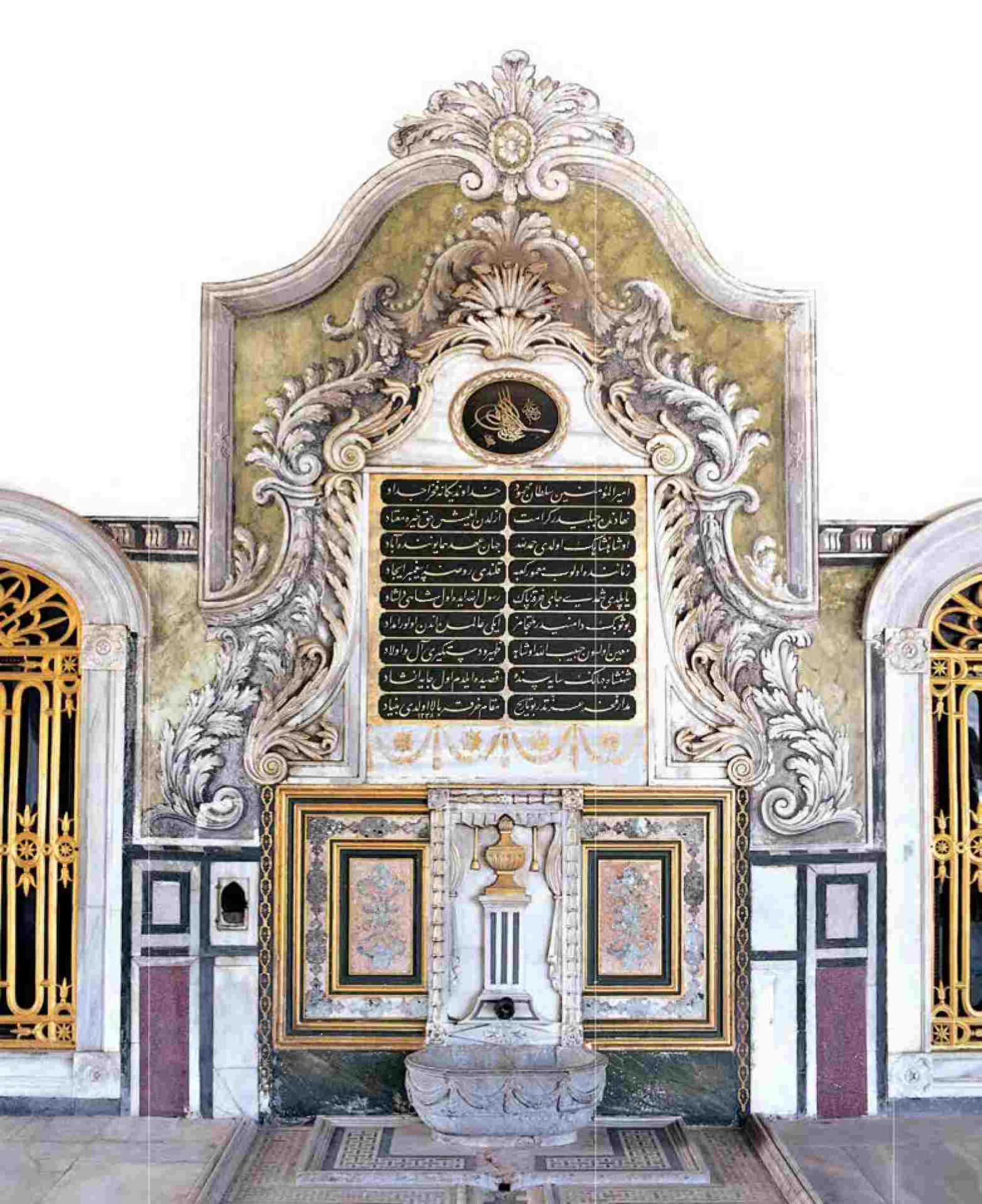
كان الخبر صحيحاً... قد مات السلطان حقاً... وسيؤتى بالجنمان من قصر "بيلر بكى" إلى قصر "طوب قايى" ليغسل ويدفن خلال بضعة ساعات. أمام "باب السلام" حارس على رأسه قلنسوة ويده بندقية، وأمام باب السعادة يستقبل الأغوات البيض زوار القصر وقد غمرهم حزن عميق. تحت القبة أنين مشحون بروعة ذكريات العصور الغابرة وكأنها تتسم لتسامة المحزون على وقائع الدهور. وأشعة الشمس تسيل من بين أشجار السرو وتتناثر على المروج الأخضر، وبعض الخدم يجمعون الأوراق المتساقطة على الأعشاب في الصباح الباكر.

مررت من أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث، وإذا بخادم يرتدي ملابس سوداء يعدو بسرعة من جهة حديقة الخزامى. الحنازة قادمة... فمشيت نحو "سراي بورنو" وإذا بموكب صغير يسير ببطء في الطريق الرملي للحديقة، وزورق كبير يفترب من المرفأ يتصاعد الدخان من مدخنته الصفراء. يا للمنظر الحزين...

أشعة الشمس تسطع على مياه بحر مرمره وشواطئه وتلاله. الحزن والصمت مخيمان على مسجده "الحميدية" وشارع "يلديز" المحفوف بالأشجار السامقة. الموكب الحزين يسير في الحديقة نحو القصر وقد ارتدى الجميع السواد، يحملون محفة حديدية عليها شرف أبيض. عبد الحميد ينام بدون روح على محفة خشبية، وشرف الفراش خشن مزركش بخطوط صفراء، يتدلى على جوانب المحفة شال مزين باللون البرتقالي والأخضر، كلما هبت الريح يرتفع الشال وتبدو من تحته معالم جسده نحيل ورأس صغير. وأمام الموكب محافظ قصر "بيلر بكى" وبحانيه صفان من الحنك، وحول المحفة أفراد من فرقة الأندرون، والمحفة مرفوعة فوق الأيدي يسير خلفها سليم أفندي نجل السلطان، وأصهار السلطان الباشوات يمشون ببطء وقد غمرهم الحزن والصمت، وفي يد أحد الخدم شاشة (طربوش) السلطان الراحل وقد غطي بمنديل أبيض، وعلى بعد أمتار يقف بستانى القصر مكتبا. الكل صامت، ليس هناك سوى أصوات الأقدام التي تسير على الطريق الرملي. البحر هادئ والأعمدة البيزنطية القديمة المضطغة أمام واجهة القصر تلمع تحت أشعة الشمس.

مرت الحنازة من أمام حديقة الخزامى، وحيء بها إلى أمام مدخل دائرة برودة السعادة الأخضر المذهب، وفتح الباب وأدخلت الحنازة العريضة على الأكتاف، ولم يدخل معها إلا خدام جناح برودة السعادة ثم أغلق الباب. أما أبناء السلطان وأصهاره الباشوات فقد بقوا في قصر الحميدية، والمشيوعون أمام باب دائرة البرودة النبوية الشريفة.

سبل الماء والكتابة التي توجد في الحجرة الخاصة على الجدار المثل على قصر بغداد وقصر روان. هنا كان السلطان يغسل بعد وفاته. تم تحديد السبل في عهد السلطان محمود الثاني الملقب بـ "عدي"، ونقلت الكتابة أثناء ذلك. فوق الكتابة تبدو شعراء السلطان محمود الثاني. يلاحظ أنه استخدم أسلوب الفن المملوكي على الرسم. أما القطع الخرفة فهي تعود إلى عهد مظففة.



امیرالمؤمنین سلطان محمود	خداوند یکتا و مظهر
خاندان جلیل و کرامت	از لدن المیش حق خیره معاد
اوشا پشاک است اولدی حمد	جان عبد جبار و نواز آید
زمانه ده اولوب همه رکبه	قلدی روم و پیغمبر ایجا
یا پدی شمسیت جامی خرقه پاک	رول اندلیه اول شاهی شاه
بر تو بکست دامنی در قیام	ایکی عالم از لدن اولور اید
معین اولون جیب انداوشا	ظهور و سپیدیری آل و اولاد
شمشاد و چاک است سایه پند	قصیه و ایلدم اول جایزه شاه
دار کف است قدر و تاج	مقام شرفت بالا اولدی بنیاد



يا لروعة هذا المكان العجيب... كيف لا وقد آوى طوال قرون الخلفاء العثمانيين وأبناءهم. هذا الصرح الأصيل تم إنشاؤه على أحمل صورة، فحدرانه من الخزف الأزرق والأخضر، وقد زينت بلوحات مذهبة وزخرفة فنية راقية تنبهر الأبصار وتأخذ بالألباب. وقد كان هذا المكان المبارك سلوى لأرواح السلاطين الذين أتوا بعد السلطان سليم الأول حيث يؤدون فيه عباداتهم، ويتהלون إلى الله بالدعاء ويتضرعون لينصر حيوش الإسلام، ويسكبون الدموع لذنوبهم بين يدي البردة النبوية السعيدة. الموقف مؤثر جدا، والحزن مخيم على أرجاء القصر كله. بعد قليل رفعت بعض الحُصُر الممدودة أمام "نافذة الحاجة". كان هناك حائل من الزجاج المطلي بالزجاج المنظر الخليلج، ونحن من السرو الأخضر عليهما مغتسل صغير وضع عليه جثمان السلطان عبد الحميد بلا حراك. وقفتُ حزينا أمام قضبان نافذة الحاجة، وبحانب التابوت يقف أفراد من الأندرون بإحلال وحشوع ينتظرون ساعة تليق المهمة المطلوبة منهم. وعلى بعد خطوات ثلوح الحجرة التي حتن فيها السلطان إبراهيم، يا للذكريات التي خبأتها أركان هذه الحجرة عبر قرون. أما اليوم فبابها المزخرف المغلق وحدرانها المزينة تبدو وكأنها تريد أن تقول شيئا تعبر فيه عن مشاعرها الحزينة إزاء الخطب الجسيم.

أربعة من رجال الدين حول المغتسل المهيب يؤدون المهمة الكبرى، على رأس اثنين منهم عمادتان من اللون الأخضر، وعلى رأس الآخرين عمادتان من اللون الأبيض، وفي أيديهم ألياف وقطع من صابون المسك يغسلون النعش بحياء وحجل، والسلطان العظيم مسحى مكشوف الصدر وما تحت الركبتين. حسد نحيل أهزله المرض العضال، وأزال الموت رونقه وأضفى عليه اصفرارا، دقيق الرقبة، أشيب الرأس واللحية، مغمض العينين، تسم حواجه عن آثار الحزن والكآبة؛ شعر مقدمة رأسه مسيل بعض الشيء على الحين، أطراف لحيته الأشياء مضفرة قليلا، لا يبدو عليه أثر الشيخوخة، عظام كتفيه وصدره ظاهرة، أبيض الساقين، صغير القدمين، ليس على بدنه شعر ما عدا حول تديده وفي إبطيه وعلى أصابعه؛ كلتا يديه مرتحيتان على جانبيه، وأصابع قدميه مفتوحة، جانبه الأيمن شديد البياض، أما الأيسر والظهر فيبدو عليهما بعض الاحمرار، ولكن بصفة عامة متناسب القامة والقوام، كلما غسل ازداد حسنا وبياضا وقد امتسك للمغسلين بالكامل.

هذا، والخدام واقفون أمام الجثمان المهيب بخشوع عميق، وفي أيديهم المباخر والطاسات الفضية، وجناح بردة السعادة يعيش يوما مشهودا، إذ تغلق فيه الصفحة الأخيرة لعهد طويل مليء بالأحداث الجسام، والأنظار كلها شاخصة نحو المغتسل حيث بنام السلطان عبد الحميد مغمض العينين؛ وكلما صب الماء الساخن على الحسد الكريم تصاعد بخار أبيض واختلط برائحة بخور العود والعبر.

يخيم على المكان سكون عميق، اللهم إلا أصوات أقدام الخدم على الحصى أثناء دخولهم وخروجهم. وكان يقف عند قدمي السلطان وبحانب العمود اثنان من أصهاره بإحلال بالغ ناظرين إلى النعش حزنين باكينين.

في ذلك اليوم الحزين كانت الطبيعة خارج هذا المكان في أبهى صورها وأجمل حللها، وكانت مياه الخليج تتراقص تحت أشعة الشمس الدافئة في شهر شباط، وأشجار الشمشير عارية تستجدي كرم الربيع.

كانت عملية الغسل مستمرة، وجثمان السلطان على المغتسل مغمض العينين أشيب الشعر عاري الجسد. إنه لمشهد مؤثر في القلوب حقاً... ها هو السلطان العظيم الذي كان يتحدى العالم بأكمله مسجى في غاية العجز والضعف والسكون، وقد أسلم رأسه للمغسلين، وساعده مسبلتان إلى جانبيه دون حراك. هذا المشهد الرهيب يثير في النفوس حزناً دفيناً ويوقظها من غفلتها العميقة. وأخيراً انتهى غسل الجثمان وحُفِّفَ بمناشف مطرزة بخيوط من الحرير الأصفر، ووضع التابوت على الأرض، وفرشت الأكفان على التابوت، ووضع الجثمان العزيز فوق الأكفان بكل وقار. السلطان العظيم عبد الحميد خان لم يفقد وعيه ورشده حتى آخر لحظة من حياته. فأوصى بوضع دعاء العهد على صدره، ويتغطى وجهه بخمار البردة الشريفة وكسوة الكعبة السوداء، فنفذت الوصية حرفياً.

كان المنظر مؤثراً... السلطان عبد الحميد في التابوت، بين أكفانه البيضاء، ودعاء العهد على صدره العاري، وكسوة الكعبة على وجهه، بلحيته البيضاء وعينيه المغمضتين في طريقه إلى مثواه الأخير، مستسلماً إلى المصير الذي هو مصير الخلق أجمعين.

تم ربط الكفن، وأغلق التابوت، ودقت الساعة الأثرية في دائرة بردة السعادة مؤذنة بدنو ساعة الرحيل. بدأت عملية تجهيز التابوت حيث وضع عليه شرشف، وعلى الشرشف غطاء أبيض مطرز، ولُفَّت قدماءه بقطعة قماش لازوردي مزهر غطي بكسوة الكعبة، إضافة إلى نُطْق مزين بأحجار كريمة، كما لُفَّ رأسه ومرفقيه بالشالات، وألصق شاشية حمراء على أطلس أخضر. وبينما كان في بداية الأمر نشاز واضح بين التابوت العاري وزخارف دائرة بردة السعادة، فقد زال هذا النشاز الآن وصاروا متساوئين.

تراحق القوم كلهم ما عدا العواميد المزينة والجدران الملونة واللوحات المزخرفة. رأس التابوت متوجه نحو جناح الحرم؛ ومن نافذة الدائرة العليا التي تقع على اليسار تبدو الستائر الخضراء المطرزة بخيوط الذهب والشبكات الذهبية واللوحات التاريخية الثمينة والمصاحف الكريمة. ثم ارتفعت من أمام قاعة العرض أصوات خطوات، وإذا بأحد أصحاب السلطان الراحل يمشي بخطوات ملؤها الحزن والأسى نحو جدران دائرة البردة النبوية السعيدة، فوقف عند الجدار وفتح أكف الضراعة مبتهلاً ببعض الكلمات الشجيرة، ثم دوى صوت بكائه في القبة المزينة.

الساعة التاسعة...

أمام باب بردة السعادة رجال قد ارتدوا أزياءهم الرسمية، على صدورهم نقوش باللون الأخضر والبنفسجي. سفراء الدول والضباط ينتظرون خروج النعش؛ الأحناب ينظرون إلى أرجاء دائرة البردة الشريفة بعين المتعجب الحيران. العلماء، ومن ورائهم رجال ذوو أكمام واسعة وعمائم مذهبة قد حضروا جميعاً. الكل الكل يتابع المشهد في جو من الخشوع، وكلما مضى الوقت كثر الازدحام. هذا، وقد جاء ولي العهد، وأبناء السلطان بأزيائهم الرسمية، فلا يبدو تحت أشعة شمس شباط إلا لمعان الأوسمة والنياشين.

وفجأة فتح باب دائرة البردة النبوية السعيدة، فحولت الأنظار إلى تلك الناحية، وهولت الحموع إليه حتى اكتظ حوار الباب بحشود الناس. القلوب تخفق بشدة، والأعناق تتناول، والعيون المحدقة ترصد أن ترى التابوت المهيّب الذي يحمل جنازة السلطان الراحل. وأخيراً خرج التابوت على رؤوس الأصابع وقد غشي الحو هية وجلال، تتقدمه شاشية السلطان الحمراء والأوسمة المرشعة بأحجار الألماس وأكسية الكعبة المطرزة؛ وأركان الدولة والضباط واقفون بخشوع يحيون سلطاناً عبقرياً عظيماً أقام الدنيا وما أقعدها.

ثم وضع التابوت أمام باب دائرة البردة الشريفة على مكان مرتفع. وجاء إمام جامع الحميدية بشيابه الخضراء المزركشة ونيشانه الخاص، فصعد المنصة وأجال النظر حوله ثم نادى بصوت حزين: "ما تقولون في حق المرحوم؟" وإذا بصوت جماعي يدوي بين أشجار السرو: "سلطان كريم..." وبعد قراءة الفاتحة انتهت طقوس الغسل والتكفين، فحمل التابوت ومرّ ببطء أمام مكتبة السلطان أحمد الثالث التي تقع على عتبة قاعة العرض، ووصل إلى باب السعادة حيث أقيمت صلاة الجنازة، وبدأت أعمال ترتيب موكب التشيع، وحضر الأمراء والأعيان والولاة ورجال القصر. وكان يسمع بين الحين والآخر أصوات الموظفين ينادون بأسماء الأعيان والأمراء والعلماء.

أخيراً تم ترتيب الموكب، واصطف أمام أشجار السرو خدام السلطان والضباط وفرقة الحرس السلطاني. وبدأ الموكب العظيم بالمسير... ضباط الأندرون ورجال القصر حملوا النعش على أكتافهم، ومشى شيوخ الطرق الصوفية ودراويش التكية الشاذلية أمامه، وفرقة من المشاة أخذوا يسرون بخشوع واضعين أسلحتهم على أكتافهم.

سار الموكب بين أشجار السرو العملاقة سيرا بطيئاً من باب السعادة حتى باب السلام؛ وخرج من باب السلام بحلال وسط أصوات التهليل الحزينة التي تخشع لها القلوب وتهتدي بها النفوس إلى معنى الأوبة إلى الخالق المتعالي، وانعكس صدى تلك التهليلات الشجية على جدران باب السلام الحجرية. كان هذا الصدى يوقظ المشاعر ويذكرها بروح السلطان سليم الثالث الأصيل؛ وحق له ذلك، إذ كل نعمة تتردد في أرجاء الأندرون لا يمكن لها إلا أن تذكر بروحه الرقيقة الطاهرة، فله رحمه الله أبداً بيضاء على القصر العثماني.

وارتفعت أصوات ضباط الأندرون بالصلوات الشريفة على النبي ﷺ، فانعكست على جدران القصر الهرمة كأنها صرخة حزينة لروح دولة آل عثمان. الكل يشي وراء النعش الحليل بوقار... ما أكثر ما شهد ورأى هذا الباب العظيم! كم من سلطان شيع من هنا، كم من أمير ووزير... وكم من عين دامعة وقلوب باكية...

وفي وسط هذا الحو الروحاني المهيّب كنتَ تسمع ترنيمات الدراويش الأملقة ونغماتهم البشيرة للشجون، وترديد كلمات التوحيد بلسان عربي مبین، وهمهمة الدعوات ودمدمة التسيجات وجلجلة التكبيرات على ألسنة شيوخ التكية الشاذلية. كما تحد أنه قد امتلأ ما بين باب السلام والباب العالي بسيارات ضباط الألمان والسيارات الخاصة التابعة للقصر، وتلحظ فتيات مثلفعات بالسواد وقد أطلن من نوافذ بعض السيارات وعلى وجه كل واحدة منهن برفق شفاف يتابعن من خلاله الحشد العظيم

السيدة اليمانية أمام دائرة
بردة السعادة. يوضع عليها
السلطان بعد التكبيل
للترحم عليه وتعبه قبل دفنه.

والموكب الجليل. كذلك ترى أمام الكنيسة البيزنطية والمنحرف العسكري أفراد فرقة المنشدين التابعة للجيش وقد اصطفوا بعمائمهم الضخمة وسراويلهم الحمراء وصدرياتهم المزخرفة بالخيوط الذهبية وأعلامهم الحمراء الملفوفة ليلفوا النجدة للخليفة الراحل وينشدوا أشجى الألقان وأعمقها حزناً.

إنه ليوم مشهود حفاء الميادين والشوارع تقص بالحماهير، يوم أشبه ما يكون بيوم الحشر. أخيراً خرجت جنازة من الباب العالي... مئات من الجنود وقد اصطفوا على جانبي الطريق بدءاً من جامع أبيصوفيا إلى ضريح السلطان محمود. أغصان الأشجار الضخمة والمنازل والتوافذ والأسطح مكنتة بالرجال والنساء والأولاد، والنعش العزيز يتقدم وسط التكبيرات والتهليلات والدعوات الماثورة مسلماً مودعاً الرعية المخلصة، متلقياً منهم أخلص التحيات وأغنى العبرات. نوافذ المنازل مليئة بالنساء اللواتي يمسحن دموعهن بالمتاديل، وإذا بامرأة لم تتمالك نفسها من البكاء فارتفع صوت بكائها وعويلها إلى عتات السماء، وانكأت على الجدار لكي لا تقع على الأرض من شدة التأثر. القلوب الرقيقة خشعت عند رؤية الموكب الحزين واعتصرها الألم فتهاطلت دموعها بغزارة أسفاً على ذلك السلطان الذي قل في التاريخ العثماني نظيره. ثم إدخال النعش إلى الضريح وسط التكبيرات والتهليلات العالية، وأنزل جثمان السلطان عبد الحميد في لحده.

ونحب أن نذكر هنا أحد المشاهد المؤثرة، وهو أن السلطان "سعيد الدين خان"، آخر سلاطين آل عثمان، عندما جاء إلى القصر لإجراء طقوس الجلوس على العرش كانت جنازة أخيه الأكبر السلطان محمد رشاد ممددة في دائرة البردة النبوية السعيدة. فأخذ قسماً من الراحة في قصر بغداد، ثم توجه نحو باب السعادة لإنهاء طقوس الجلوس، فرأى أمام باب قاعة التافورة نعش السلطان محمد رشاد، فتوقف ليقراً الفانحة على روح أخيه وقد أثر في قلبه المشهد أيما تأثير، إذ كان هو في طريقه إلى كرسي السلطنة بينما كان أخوه في طريقه إلى مثواه الأخير، فقال لمن حوله: "سيحان الله، ما أقصر المسافة بين كرسي العرش والقبر."



